الفصل الرابع

الفرج بعد الشدة

قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل: ٦٢). وقد فطرت النفوس على اللجوء إلى الله عز وجل، عندما تشتد بها الكربات، وتحاصرها المخاطر، حتى النفوس الكافرة الملحدة تنسى عند الشدائد كفرها، وجحودها وتتوجه إلى خالقها وحده سبحانه وتعالى.

لقد أجريت مقابلة مع أحد الطيارين في الحرب العالمية الثانية سأله الصحفي عن أحرج الساعات التي مرت به أثناء قيامه بواجبه، وماذا كان شعوره في تلك الساعة الحرجة؟ فأجاب الطيار بأنه نشأ في بيت ليس فيه ما يذكر بالله، فقد كان أبوه ملحدًا، فنشأ هو على إنكار كل شيء عدا ما يراه بعينه أو يلمسه بيديه، وفي أثناء قيامه بأعماله الحربية أحس أن طائرته يوشك أن تسقط وأن الهلاك محتم لابد منه، قال: وفي تلك الساعة الحرجة لم أفكر في شيء على الأرض من أهل أو قريب أو زوجة أو أولاد أو أصدقاء، لم أفكر في أي شيء من كل هذا وإنما رأيت نفسي وبلا شعور مني متوجها إلى الله هاتفًا باسمه، طالبًا العون منه، وهكذا كان فقد نجوت بأعجوبة والفضل في ذلك كله لله وحده، الذي لم أفكر فيه قط منذ ثلاثين سنة وهي عمري الآن[1]، فتأمل كيف نطقت الفطرة وتلاشى الإلحاد الأعمى. وقد ذكر الله أن المشركين كانوا إذا نزلت بهم الضراء والشدائد والأهوال أخلصوا الدعاء لله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى

(١) ذكر هذا الحدث الدكتور عبد الكريم زيدان في كتاب «أصول الدعوى» (ص:٢٢).

﴿ ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ (الإسراء:٦٧). وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (يونس:١٢).

كم كشف الله عن العباد من كروب وكم فرج عنهم من خطوب مؤلمة؟ وكم أنجى الله من نفوس كانت هلكتها متحتمة! وكم في حياة الناس من عبر وكم في الأحداث من عظات، لو تأملتها لاندهش عقلك من عجيب لطف الله جل جلاله، إليكم هذه الشواهد والمشاهد، والأحداث والمواقف نقف من خلالها على عظيم لطف ربنا بنا جل جلاله وتقدست آلاؤه....

فأبشر يا عبد الله فالفرج من الله قريب، والعسر سيمضي ويعقبه يسر، قال الله تعالى: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (الطلاق:٧). وقال جل ذكره ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (الشورى:٢٨).

كلما اشتدت الأزمات وأدلهمت الخطوب والكروب فاعلم أن فرج الله قريب وأن أشد ساعات الليل سوادًا، التي يعقبها طلوع الفجر وانبلاج الصبح قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف:١١٠). وقال تعالى ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح:٥-٦). ولن يغلب عسر يُسرين ولله در من قال:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعًا وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجات وكنت أظنها لا تفرج

ولله در القائل

تصبر أيها العبد اللبيب لعلك بعد صبرك ما تخيب

وكل الحادثات إذا تناهت يكون وراءها فرج قريب

ولله در من قال:

إني رأيت معاشرًا لم يفهموا معنى الوجود فأصبحوا قد حاروا

دنياك دار البلايا مهدت ووراء ذلك إن عقلت نهار

١- نزول المطر في لمح البصر:

قال ربنا جل وعلا ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (الشورى: ٢٨). وورد في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل رجل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر، ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائما، فقال: يا رسول الله هلكت المواشي، وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا، قال فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، قال أنس: لا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيء وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، وقال والله ما رأينا الشمس سبتًا، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبله قائمًا فقال يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يمسكها. قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم حوالينا لا علينا، اللهم على الآكام والجبال والآجام، والظراب، وبطون الأودية

ومنابت الشجر، قال فانقطعت فخرجنا نمشي في الشمس[١] وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهو ليس خاصًا بالرسل والأنبياء.

فهذا أحد الفضلاء العباد كان بأهله يومًا في الصحراء في جهة البادية وكان رجل عابدًا قانتًا منيبًا ذاكرًا، قال: فانقطعت المياه المجاورة لنا، وذهبت ألتمس ماء لأهلي، فوجدت أن الغدير قد جف، فعدت إليهم ثم التمسنا الماء يمنة ويسرة فلم نجد ولو قطرة، وأدركنا الظمأ واحتاج أطفالي إلى الماء، فتذكرت رب العزة سبحانه وتعالى، فهو قريب مجيب، فقمت فتيممت واستقبلت النبلة وصليت ركعتين، ثم رفعت يدي وبكيت، وسالت دموعي وسألت الله بإلحاح، وتذكرت قوله تعالى ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النمل: ٦٢).

و والله ما هو إلا أن قمت من مقامي وليس في السماء من سحاب ولا غيم، إذ بسحابة قد توسطت مكاني ومنزلي في الصحراء، واحتكمت على المكان ثم أنزلت ماءها، فملأت الغدران من حولنا وعن يميتنا ويسارنا فشربنا واغتسلنا وتوضأنا، وحمدنا الله سبحانه وتعالى ثم ارتحلت قليلًا تخلف هذا المكان وإذا الجدب والقحط فعلمت أن الله ساقها لي بدعائي، فحمدت الله عز وجل، إنه لابد أن نلح على الله سبحانه وتعالى فإنه لا يصلح الأنفس ولا يرزق ولا يهدي ولا يوفق ولا يثبت ولا يعين ولا يغيث إلا الله سبحانه وتعالى[٢].

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) «لا تحزن» (ص:٤٤٥).

٢- لا يأس ولا قنوط:

يقول الشيخ عطية سالم رحمه الله في كتابه في ظلال عرش الرحمن: أخبرني الشيخ عبد الحميد عباس وهو رجل فاضل لا يتهم على خبر، قال: وقع لامرأة من جماعة النخاولة كانت تسير في طريق بضواحي قباء، وبينما هي تسير انخسف تحتها دبل، وهو مجرى الماء، في قناة تحت الأرض فسقطت فيه المرأة وسحبها إلى جانبه، وأمسكت بحجر وجلست عليه، ومكثت أربعة أيام على حالها، ومر أحد الناس في ذلك المكان فسمع صوتًا فنزل وأخرجها، وسئلت كيف كنت تعيشين؟ فقالت: إن طاسة الحليب التي كنت أعطيها للعجائز كانت تأتيني كل يوم، وقد كان للمرأة غنم، ولها جيران نسوة عجائز، فكانت تعطيهن طاسة حليب من غنمها[(١)].

وقال إبراهيم التيمي عندما حبسه الحجاج بن يوسف فدخلت على اثنين في قيد واحد، بمكان ضيق لا يجد الرجل إلا موضع مجلسه، فيه يأكلون، وفيه يتغوطون وفيه يصلون، قال: فحبسني برجل من أهل البحرين، فأدخل علينا فلم نجد مكانًا، فجعلوا يترامون به، فقال: اصبروا فإنما هي الليلة، فلما كان الليل قام يصلي فقال: يارب منت علي بدينك وعلمتني كتابك، ثم سلطت علي شر خلقك، يارب الليلة الليلة لا أصبح فيه، فما أصبحنا حتى ضربت أبواب السجن أين البحراني أين البحراني، فخرج معهم، فقلنا: ما دعي هذه الساعة إلا ليقتل، ولكنه دعي فخلى سبيله، وأطلق سراحه، فجاء فقام على الباب فسلم علينا وقال أطيعوا الله لا يضيعكم»[(٢)].

---

(١) «في ظلال عرش الرحمن» (ص:١٨٩)، «ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله» (٢/ ٦٤،٦٥).

(2) «الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا، (ص:٦٠)، وكذلك «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (ص:٤٠٤).

وقال ابن أبي الدنيا، حدثني أيوب من معمر قال: حاصر هارون أمير المؤمنين حصنًا فإذا سهم قد جاء ليس له نصل، حتى وقع بين يديه مكتوب عليه

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وصار القار كاللبن الحليب

فقال هارون: اكتبوا عليه وردوه:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

قال: ففتح الحصن بعد ذلك بيومين أو ثلاثة فكان الرجل صاحب السهم ممن يخلص من السجن وكان مأسورًا محبوسًا فيه سنتين[1]، وقد ذكر الإمام ابن حبان نحو هذه القصة في كتابه روضة العقلاء ونزهة الفضلاء فقال: قال مسعر إن رجلًا ركب البحر فكسر به، فوقع في جزيرة من جزائر البحر، فمكث ثلاثًا، لا يرى أحدًا ولا يأكل طعامًا ولا يشرب شرابًا فأيس من الحياة فتمثل

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وصار القار كاللبن الحليب

فأجابه مجيب

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

فنظر فإذا سفينة في البحر فلوح لهم فأتوه، فحملوه وأصاب معهم خيرًا ورجع إلى أهله سالمًا[2].

---

(1) «الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا (ص:٧٧)

(2) «روضة العقلاء» (ص:١٦٢).

٣- ثبتك الله كما ثبت الدين:

ها هو الإمام عفان بن مسلم عليه رَحِمَهُ اللَّهُ يثبت أمام الفتنة فيفرج الله عنه ما أصابه من محنة، قال حنبل بن إسحاق كنت حاضرًا عند عفان بعد أن امتحن، فسأله يحيى بن معين بحضور أبي عبد الله أحمد بن حنبل وهو معه فقال: يا أبا عثمان أخبرنا بما قال لك إسحاق بن إبراهيم، في المحنة وما رددت عليه فقال عفان لابن معين: يا أبا زكريا، لم أسود وجهك ولا وجوه أصحابك يعني أنه لم يجب إلى القول بخلق القرآن فقال له: فكيف كان؟ قال: دعاني إسحاق ابن إبراهيم، فلما دخلت عليه قرأ الكتاب الذي كتبه المأمون من أرض الجزيرة إلى الرقة، فإذا فيه: امتحن عفان وادعه إلى أن يقول: القرآن كذا وكذا، فإن قال ذلك فأقره على أمره وإن لم يجبك فاقطع عنه الذي يجري عليه، وكان المأمون يجري عليه في كل شهر خمسمائة درهم، قال عفان: فلما قرأ علي الكتاب قال لي: ما تقول؟ فقرأ عليه قل هو الله أحد إلى آخرها، وقلت: أمخلوق هذا؟!

فقال لي إسحاق: إن أمير المؤمنين أمر إن لم تجبه يقطع عنك ما يجرى عليك، وإن قطع عنك أمير المؤمنين قطعنا عنك نحن أيضًا فقلت له، قال الله: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٢).

فسكت عني إسحاق وانصرفت فسر أبو عبد الله ويحيي ومن كان حاضرًا يقول: فلما رجع إلى داره عذله أهل بيته وكانوا أربعين نفسًا، فبعد قليل دق عليه الباب إنسان فدخل ومعه كيس فيه ألف درهم فقال: يا أبا عثمان ثبتك الله كما ثبت الدين، وهذا لك في كل شهر[1].

---

(١) «الجوهر المحصل في مناقب الإمام أحمد بن حنبل» (ص: ١١٤)، «وسير أعلام النبلاء» =

٤- قصة مأساة يصحبها لطف الله:

أيها الإخوة كم في الواقع من عظات وعبر يراها ويبصرها من اعتبر وادَّكر، فهذه قصة شاب لا يزال في ريعان شبابه، يظهر فيها لطف الله في أكثر من موضع فتأمل.

في قرية من قرى الغربية تقع هذه القرية بالقرب من مدينة المحلة الكبرى حدث لهذا الشاب ذلك الموقف، قدَّم في إحدى الكليات ونجح في اختبارات الالتحاق بها وما بقي إلا الاختبار النهائي، وكان في حاجة أن يكون معه مبلغ من المال لذلك عندما عرض عليه زميل أن يذهبا معا إلى قرية تسمى (بشبيش) حيث أن فيها مصنعًا لحلج الأقطان كانا يعملان فيه من وقت لآخر، لينقاضى كل منهما في الليلة أربعين جنيهًا، وبالفعل ذهبا وبعد مضي أكثر اليوم في العمل قال هو لصاحبه تعال يا أخي نُصل أثناء الراحة في هذا المسجد المجاور لنا فما صلينا فيه صلاة قط، يقول فذهبنا وصلينا فوجدنا بعض الناس معتكفين في العشر الأواخر من رمضان، فقلت لصاحبي ما رأيك أن نعتكف معهم ونترك العمل ما بقي من الوقت فألح عليه صديقه في الرجوع إلى العمل بسرعة يقول، فرجعنا إلى المصنع واستغرق لعمل أذهاننا، وبينما أنا أنظف المنشار بقطعة من قماش التفت فإذا بابن صاحب المصنع مقبلًا فجعلت أكلمه وسهوت قليلًا والمنشار الكهربي يعمل وفجأة انتفض جسمي كله، وإذ بالقماشة التي في يدي يلتقطها المنشار بسرعة كيف؟ لا أدري وسقطت على الأرض مذعورًا ولا أدري ما يحدث. وفجأة وجدت زملاء كثيرون من المصنع حولي ينظرون إلي برعب شديد منهم من يبكي ومنهم من يضرب الجدار برأسه وينظر إلي ويبكي.

(١٠/ ٢٤٢).

ولا أدري لم كل هذا الفزع الذي أراه وإذ بواحد منهم ينظر إلى ذراعي وهو يبكي ويتألم، فنظرت إلى ذراعي فإذا هو قد قطع!! فصرخت عندئذ صرخة عظيمة جدًا اجتمع من أجلها بقية العمال في المصنع، وإذا بالدماء تغرق المكان وحاولوا بسرعة نقلي إلى المستشفى ولكن سائق سيارة المصنع هرب خوفًا من المساءلة وما وافق أحد من السائقين على نقلي إلى المستشفى خوفًا من المساءلة ولذلك وقف زملائي في الطريق السريع وأوقفوا سيارة بالقوة ولما رفض السائق الذهاب بي إلى المستشفى ضربوه وأجبروه على الذهاب بي، وفي مستشفى الطوارئ قاموا ببتر الذراع سريعًا،وأرقدوني في سرير أبيض في المستشفى وقد بدا ذراعي المقطوع للناظرين لأنهم لم يلبسوني إلا ما يغطي العورة، فلما جاء أبي من البيت ليراني بعدما سمع الخبر دخل علي وأنا على سريري ونظر إلى ذراعي وصرخ قائلًا: وقعت يا بطل!! وسقط أبي مغشيًا عليه والألم ينهش في أحشائي، والحزن يأكل كبدي، وتوالت علي النكبات والهموم، وبعد الخروج من المستشفى مكثت في البيت مدة من الزمان شعرت فيها بأن كل شيء في حياتي تحطم، وفقدت الأمل في الحياة فقدت تلك الكلية التي كنت أريد الالتحاق بها، وصرت عاجزًا صرت مهملًا لا قيمة لي بين الناس. ولا وظيفة لي إلا أن آكل وأشرب وأنام ويعطف علي إخوتي الصغار حتى سئمت من حالي،وضجرت من نظر الناس إلي ومما زادني ألمًا أن سمعت أحد إخوتي يقول للآخر هل سيبقى أسامة هكذا دائمًا؟ قال: نعم سيبقى محبوسًا في البيت كالنساء والأطفال الصغار لأنه صار عاجزًا، وهنا بكيت على حالي وسالت دموعي غزيرة على وجهي وتضرعت إلى الله أن يفرج كربي.

وبعد فترة سمعت أن هناك كلية أزهرية في دمياط تقبل من كان في مثل حالي فسارعت على الالتحاق بها وفعلًا انتظمت في الدراسة بها ولما جاء موعد الامتحان

أخذت أخي الصغير ليكتب لي في الامتحان لأن ذراعي الأيمن هو الذي قطع ولما جاء عميد الكلية لينظر في بطاقة أخي رفض أن يكتب لي لأنه كان في الثانوية الأزهرية وألححت عليه حتى لا أرسب فما وافق وتركني وانصرف فحزنت جدا ودعوت عليه بصوت مرتفع، وذلك لشدة الحسرة التي أصابتني، ثم فرج الله هذه الكربة فقيض لي من أساتذة الكلية من جاء وجلس إلى جواري وقال أنا أكتب لك ما تمليه علي من إجابة فنجحت في الامتحان بحمد الله وواصلت الدراسة بفضل من الله ومنة،ولا زال هذا الشاب طالبًا في هذه الكلية يواصل تعليمه ريستأنف حياته وكم سيقيض الله له من لطف ما لا يخطر بباله إذا هو صدق مع الله رتضرع إليه[1] فالعمل بعد التخرج ينتظره ولو دخل تلك الكلية أتي أراد لبعد كثيرًا عن الله فيما أظن.

٥- هذا فعلك بمن عصاك فكيف فعلك بمن أطاعك؟!

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا يوسف بن الحسن قال: كنت مع ذي النون المصري على شاطئ غدير فنظرت إلى عقرب أعظم ما تكون على شط الغدير واقف، فخرج فإذا بضفدع قد خرج من الغدير فركبتها العقرب، فجعلت الضفدع تسبح حتى عبرت الغدير. فقال ذو النون إن لهذا العقرب شأنًا، فامض بنا فجعلنا نقفوا أثرها فإذا رجل نائم سكران، وإذا حية قد جاءت فصعدت من ناحية سرته إلى صدره وهي تطلب أذنه، فاستحكمت العقرب من الحية فضربتها فانقلبت وانفسخت، ورجعت العقرب إلى الغدير فجاء الضفدع فركبتها فعبرت، فحرك ذو النون الرجل النائم ففتح

(1) حدثني بهذه القصة أحد الإخوة الحفظة لكتاب الله إثر محاضرة ألقيتها في بلدهم.

عينيه فقال: يا فتى، انظر مما نجاك الله هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التي أرادتك ثم أنشأ ذو النون يقول:

يا غافلًا والجليل يحرسه من كل سوء يدور في الظلم

فنهض الشاب فقال: إلهي هذا فعلك بمن عصاك فكيف رفقك بمن يطيعك؟! ثم ولى فقلت: إلى أين فقال: إلى الله[1].

(١) «عيون الحكايات» لابن الجوزي، (١١٨-١١٩)، «المستطرف» للأبشيهي (٤٧٧-٤٧٨).

obeikandl.com

٦- أَمَّنْ يجيب المضطر إذا دعاه؟!

قال التنوخي رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثني أبو الحسن بن أبي طاهر محمد بن الحسن الكاتب قال: قبض عليَّ محمد بن القاسم بن عبيد الله في أيام وزارته للقاهر بالله، وكذلك قبض على أبي، فحبسنا في حجرة ضيقة،وأجلسنا على التراب، وشدد علينا، وكان يخرجنا كل يوم فيطالب أبي بأموال المصادرة،وكنت أُضرب أمام أبي ولا يضرب هو فلاقينا من ذلك أمرًا شديدًا صعباً، فلما كان بعد أيام قليلة، قال لي أبي: إن هؤلاء الحراس قد صار بيننا وبينهم عشرة، فاكتب إلى أبي بكر الصيرفي وكان صديقًا لأبي حتى يرسل إلينا بثلاثة آلاف درهم نفرقها فيهم، ففعلت ذلك، فأرسل إلينا أبو بكر المال في نفس اليوم، فقلت للحراس في ذلك اليوم لقد صارت لكم عندنا حقوق فخذوا هذه الدراهم فانتفعوا بها، فامتنعوا عن أخذها، فقلت: ما سبب امتناعكم؟ فلم يجيبوا، فقلت: إما قبلتم وإما عرفتمونا السبب الذي لأجله امتناعكم عن الأخذ، فقالوا: نشفق عليكم ونستحي من ذلك، فقال لهم أبي: اذكروا السبب ولا عليكم فقالوا: قد عزم الوزير على قتلكما الليلة، ولا نستحسن أخذ شيء منكما مع ذلك.

قال فقلت، ثم قلت لأبي ما أصنع بالدراهم؟ قال ردها على أبي بكر فرددتها عليه، وكان أبي يصوم تلك الأيام كلها، فلما غابت الشمس تطهر، وصلى المغرب فصليت معه ولم يفطر ثم أقبل على الصلاة والدعاء إلى أن صلى العشاء الآخرة ثم دعاني، فقال: اجلس يا بني بجواري جاثيًا على ركبتك ففعلت، وجلس هو كذلك ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: يا رب إن محمد بن القاسم ظلمني، وحبسني على ما ترى، وأنا بين يديك وقد فوضت أمري إليك، وأنت أحكم الحاكمين فاحكم بيننا، ولا يزال يكررها ولا يزيد عليها، ثم صاح بها إلى أن ارتفع صوته ولم يزل يكررها بصياح ونداء، واستغاثة

حتى ظننت أنه قد مضى ربع الليل، فوالله ما قطعها حتى سمعت الباب يدق، فذهبت على أمري وذهل عقلي ولم أشك في أنه القتل، وفتحت الأبواب فدخل قوم بشموع فتأملت، وإذا فيهم سابور قادم الخليقة القاهر، فقال: أين أبو طاهر؟ فقام إليه أبي فقال ها أنا ذا، فقال: أين ابنك؟ فقال: هو ذا فقال: انصرفا إلى منزلكما، قال: فخرجنا فإذا هو قد قبض على محمد بن القاسم وحبسه، ونعاش ابن القاسم في الاعتقال ثلاثة أيام ثم مات(١).

قال مالك بن دينار: خرجتُ إلى الحج وبينما أنا سائرٌ في البادية إذ رأيت غرابًا في فمه رغيف فقلت: هذا الغراب يطير وفي فمه رغيف؟ إن له لشأنًا فتبعته حتى نزل عند غار فذهبت إليه فإذا بي أرى رجلًا مشدودًا لا يستطيع فكاكًا، والرغيف بين يديه فقلت للرجل من تكون؟ ومن أي البلاد أنت؟ فقال: أنا من الحجاج أخذ اللصوص مالي ومتاعي وشدوني وألقوني في هذا الموضع كما ترى فصبرتُ على الجوع أيامًا ثم توجَّهتُ إلى ربي بقلبي وقلت: يا من قال في كتابه العزيز: «أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء» أنا مضطر فارحمني... فأرسل الله هذا الغراب بطعامي. قال مالك: فحللتُه من الوثاق ثم مضينا(٢).

٧- محن لها رجال:

قال القاضي أبو علي التنوخي: حكي عبيد الله بن سليمان عن أبيه سليمان بن وهب أنه قال: كنت يومًا في حبس محمد بن عبد الملك الزيات، في خلافة الواثق،

---

(1) «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٤١٠-٤١٢).

(2) «وقفات وعظات استجيب فيها الدعوات» (ص: ١٠).

وكنت آيس ما يكون من الفرج وكنت أشد ما أكون محنة وغمًا، حتى وردت علي رسالة من أخي الحسن بن وهب وفيها شعر له يقول:

محـنٌ أبـا أيـوب أنـت محلهـا ... فإذا جزعت من الخطوب فمن لها؟!

إن الـذي عقـد الـذي انعقـدت بـه ... عقـد المكـاره فيـك يحـسن حلهـا

فاصـبر فـإن الله يعقـب فرجـة ... ولعلهـا أن تـنجلي ولعلهـا

وعـسى تكـون قريبـة مـن حيـث لا ... ترجـو وتمحـو عـن جبينـك ذلهـا

قال فتفاءلت بذلك وقويت نفسي فكتبت إليه:

صـبرتني ووعظتنـي وأنـا لهـا ... وسـتنجلي بـل لا أقـول لعلهـا

ويحلهـا مـن كـان صـاحب عقـدها ... ثقـة بـه إذا كـان يملـك حلهـا

قال: فلم أصل العشاء في ذلك اليوم حتى أطلقت، فصليتها في داري، ولم يمض يومي ذاك حتى فرج الله عني، وأطلقت من حبسي[1].

ويذكر أن سليمان بن وهب هذا صار كاتبًا ثم وزيرا فيما بعد، ومن الجدير بالذكر أن محمد بن عبد الملك الزيات هذا كان وزيرًا للمعتصم ثم وزيرًا للواثق، وكان يتفنن في تعذيب الناس لدرجة أنه أمر بتنور من خشب فيه مسامير من حديد قائمة، وقيل إنه أول من أمر بعمل ذلك فعذب بن أسباط المصري بذلك حتى استخرج منه جميع ما عنده، قال الإمام الذهبي في ترجمته: وكان يقول بخلق القرآن، ويقول: ما رحمت أحدًا

(١) «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (ص:٤٠٦-٤٠٧).

قط، الرحمة خور في الطبع، فسجن بعد ذلك في قفص ضيق جهاته مسامير كالمسال، فكان يصيح: ارحموني، فيقولون: الرحمة خور في الطبع[١].

٨- ثقة عجيبة

يقول أبو علي التنوخي: وحكي محمد بن الحسن بن المظفر قال: حضرت العرض[٢] في مجلس الجانب الشرقي ببغداد فأخرج على المجلس جماعة فقتل بعضهم، ثم أخرج غلامًا حدث السن مليح المنظر فرأيته لا يبدو عليه شيء من الضجر، فقلت له: يا هذا أحسبك رابط الجأش، لأني أراك مطمئنًا، فهل هناك شيء تشتهيه أقدمه لك؟ فقال: نعم أريد لحمًا حارًا ورقاقًا، قال: فسألت صاحب المجلس أن يؤخر قتله إلى أن أطعمه ذلك، فلم أزل ألطف به، قال: فأرسلت من أحضر الطعام واستدعيت الفتى فجلس يأكل غير مكترث بالحال، والسياف قائم، والقوم يقدمون فتضرب أعناقهم، فقلت: يا فتى أراك تأكل بسكون وقلة فكر، فأخذ قشة من الأرض فرمى بها رافعًا يده وقال: يا هذا إلى أن تسقط هذه إلى الأرض مائة فرج، قال: فوالله ما استتم كلامه حتى وقعت صيحة عظيمة وقيل قد قتل نازوك وهو القائد الذي أمر بقتل هؤلاء وأغارت العامة من الناس على ذلك الموضع، فوثبوا بصاحب المجلس وكسروا باب الحبس وخرج جميع من كان فيه، فاشتغلت أنا عن لفتى وعن كل شيء بنفسي حتى ركبت دابتي، وانطلقت سريعا وصرت على الجسر أريد منزلي، فوالله ما توسطت الطريق حتى أحسست بإنسان قد قبض على إصبعي برفق وقال يا هذا: ظننا بالله عز وجل أجمل من

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (ص:١١-١٧٣).

(٢) أي: عرض المسجونين لإيقاع العقوبات بهم.

ظنك، فكيف رأيت لطيف صنعه قال: فالتفت فإذا ذلك الفتى فهنأته بالسلامة فأخذ يشكرني على ما فعلته وحال الناس والزحام بيننا وكان آخر عهدي به[١].

٩- يا من رزقت الطير ارزقني:

قال التنوخي: حدثنا علي بن الحسين بن محمد أن علي بن يزيد كان صاحب مراسلات وبريد للعباسي بن المأمون، غضب عليه العباس يومًا وأخذ منه جميع ما كان يملكه حتى بقي لا يملك شيئًا غير فرس بسرجه ولجامه وما عليه من ثياب، وغلام فكان يركب في أول النهار يبحث عن عمل. وفي آخر اليوم يرسل الغلام بالفرس يحمل عليه بالأجرة فيكتسب ما يشتري به علفًا للدابة، وما يأكل هو والغلام وذلك كل يوم، فحدث في بعض الأيام أن الدابة لم تكسب شيئًا، فبات هو والغلام طاويين لم يجدا طعامًا يأكلانه، وحدث نفس الأمر في اليوم الذي يليه حتى كدنا أن نهلك، فقال لي الغلام: يا سيدي إذا استطعنا أن نصبر نحن فما الشأن في هذه الدابة، إني أخاف أن تهلك وتموت، قال: فقلت:وماذا أصنع؟! ما أجد حيلة وليس لي إلا السرج واللجام وثيابي، وإن بعت من ذلك شيئًا تعطلت عن الحركة ولم أستطع البحث عن عمل، قال: فانظر في أمرك، قال: فنظرت فإذا بحصيري خلق، ومخدتي بالية ممزقة، ولم أجد غير منديل قديم قد بقي فيه الرسم، فقلت للغلام: خذ هذا المنديل فبعه واشتر به علفًا للدابة ولحمًا واشوه فقد اشتاقت نفسي إليه.

---

(١) «الفرج بعد الشدة» (ص:١٧٢-١٧٣)، بتصرف يسير، واعلم أخي أن هذا الكتاب المذكور فيه من المجازفات والمخالفات الشيء الكثير، وفيه أيضا من النفع شيء كثير فعليك أن تنتبه لهذه المخالفات إذا رمت قراءته.

فأخذ المنديل ومضى، وبقيت في الدار وحدي، وفيها صقر قد جاع لجوعنا فلم أشعر إلا بعصفور قد سقط على إناء فيه ماءيريد أن يشرب منه فسارع إليه الصقر ليلتقطه فما استطاع لضعفه وطار العصفور، وبعد فترة عاد العصفور إلى الإناء فسارع إليه الصقر فالتقطه، وابتلعه فلما صار العصفور في حوصلته، عاد الصقر إلى إناء الماء فشرب وبسط جناحيه وصاح، فلما رأيت دلك بكيت ورفعت رأسي إلى السماء وقلت: اللهم كما فرجت عن هذا الطائر فرج عنا، وارزقنا من حيث لا نحتسب، فما قمت من مكاني حتى دق الباب فقلت: من؟ قال: أنا إبراهيم وكيل العباس، قلت: ادخل فدخل فلما رأى صورتي قال: مالي أراك على هذه الصورة، فكتمت عليه خبري، فقال: الأمير يقرأ عليك السلام وقد ذكرك اليوم في الصباح، وأمر لك بخمسمائة دينار، وأخرج كيس من النقود ووضعه بين يدي، فحمدت الله تعالى ودعوت للعباس، وشرحت للرجل قصتي، وحدثته بحديث الدابة وما تقاسيه من الضر،وحديث المنديل والصقر والدعاء، فتألم مما سمع ثم انصرف.

ثم لم يلبث أن عاد مرة أخرى فقال لي: ذهبت إلى الأمير حدثته بحديثك كله، فاغتم لذلك وأمر لك بخمسمائة دينار أخرى وقال: اكتسي بتلك واشتر بها أثاثا وأنفق الأخرى في طعامك إلى أن يفرج الله وعاد الغلام من السوق وقد باع المنديل واشترى منه ما أردت فأريته الدنانير ففرح جدًا، فالحمد لله الذي فرج عنا[1].

(١) «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (ص:٢٨٨-٢٣٠).

٩- قُتِل الأمير ونجا الأسير:

قال التنوخي: ذكر المدائني في كتاب له قال: وجه سليمان بن عبد الملك حين ولي الخلافة محمد بن يزيد إلى العراق، فأطلق أهل السجون وقسم الأموال وضيق على يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج فظفر به يزيد بعد ذلك بأفريقية، ولما رآه ووقف أمامه كلمه وفي يده عنقود عنب فجعل محمد بن يزيد يقول: اللهم احفظ لي إطلاقي الأسرى وإعطائي الفقراء فقال له يزيد حين دنا منه: من؟ محمد بن يزيد؟ مازلت أسأل الله أن يُمكني منك، فقال له: وأنا مازلت أسأل الله أن يجيرني منك، قال: والله ما أجارك، ولا أعاذك مني،والله لأقتلنك قبل أن آكل هذه الحبة العنب،والله لو رأيت ملك الموت يريد قبض روحك لسبقته إليك، فأقيمت الصلاة فوضع يزيد الحبة العنب من يده وتقدم فصلى بهم، وكان أهل أفريقية قد اتفقوا على قتله، فلما ركع ضربه رجل منهم على رأسه بعمود فقتله، وقيل لي اذهب حيث شئت فمضيت سالمًا والحمد لله [1] فسبحان من يدبر الأمر قتل الأمير وفك الأسير.

١٠- سبحان مقلب القلوب:

عن سفيان بن عيينة قال أتى زياد بن أبيه (بن أبي سفيان) برجل فأمر به ليقتل، فلما أحس الرجل بالموت قال: ائذنوا لي أن أتوضأ وأصلي ركعتين، فأموت على توبة لعلي أنجو من عذاب الله قال زياد: ما يقول؟ قالوا يقول كذا وكذا، قال: دعوه فليتوضأ وليصل ما بدا له، قال: فتوضأ وصلى كأحسن ما يكون فلما قضى صلاته أتى به

---

(١) نفس المصدر السابق (٢٤٢)، و«المستطرف» للأبشيهي.

ليقتل، فقال له زياد: هل استقبلت التوبة؟ فقال: إي والله الذي إله غيره، فخلى زياد سبيله[١].

١١- ما دمت طيبًا فلن ترزق إلا طيبًا:

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله إذا أحب عبدًا حماه الدنيا، كما يظل أحدكم يحمي سقيمة الماء**»، وفي لفظ: «**إن الله ليحمي عبده الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه**»[٢]، قد يحبس الله عنك مالًا كنت تسعى وتجد في طلبه وتلح في الحصول عليه ولكن الله يمنعه عنك لطفًا بك فقد يكون المال خبيثًا وقد يوقعك حصول المال في معاصي، وقد يجرك وجود المال في يدك إلى الطغيان ونسيان الآخرة والإعراض عن الله، فيمنع الله عنك ما يضرك وأنت لا تدري، ذكر القرني في كتابه لا تحزن قال: أخبرني أحد أعيان مدينة الرياض أنه في عام ١٣٧٦هـ، ذهب مجموعة من البحارة من أهل الجبيل إلى البحر يريدون اصطياد السمك ومكثوا ثلاثة أيام بلياليهن لم يحصلوا على سمكة واحدة، وكانوا يصلون الصلوات الخمس، وكان إلى جانبهم مجموعة أخرى لا يسجدون لله سجدة، ولا يصلُّون له صلاة، وإذا هم يصيدون ويحصلون على طلبهم من هذا البحر فقال بعض هؤلاء: سبحان الله نحن نصلي لله عز وجل كل صلاة وما حصلنا على شيء من الصيد، وهؤلاء لا يسجدون لله سجدة وها هو صيدهم كثير فوسوس لهم الشيطان بترك الصلاة، فتركوا صلاة الفجر، ثم صلاة الظهر ثم صلاة العصر، وبعد العصر أتوا إلى البحر صادوا سمكة فأخرجوها وبقروا بطنها فوجدوا فيها

---

(١) «كتاب المحتضرين» (ص:٢٣٦).

(2) رواه الترمذي ٢٠٣٦، وابن حبان في صحيحه (٦٦٩) والإسنادان صحيحان كما قال محقق «جامع العلوم والحكم» (ص:٥١٧).

لولؤة ثمينة، فأخذها أحدهم بيده وقلبها ونظر إليها وقال سبحان الله لما أطعنا الله ما حصلنا عليها ولما عصيناه حصلنا عليها، إن هذا الرزق فيه نظر، ثم أخذ اللولؤة ورمى بها في البحر، وقال: يعوضنا الله والله لا آخذها وقد حصلت لنا بعد أن تركنا الصلاة، هيا ارتحلوا بنا من هذا المكان الذي عصينا الله فيه، فارتحلوا ما يقارب ثلاثة أميال، ونزلوا هناك في خيمتهم، ثم اقتربوا من البحر مرة أحرى، فصادوا سمكة فبقروا بطنها، فوجدوا اللولؤة في بطن تلك السمكة، فقالوا: الحمد لله الذي رزقنا رزقًا طيبًا، وذلك بعد أن بدءوا يصلون ويذكرون الله ويستغفرونه فأخذوا تلك اللؤلؤة فهذا لطف الله ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه[1] قلت: وهذا فيما ظهر للناس فما أدراك بما أخفاه الله عنهم من بديع لطفه؟!

١٢- صلى في مسجد الرسول وحده:

سمعت الشيخ القدوة محمد حسان حفظه الله ورعاه يقول: كانت أول مرة في حياتي آتي إلى مدينة الرسول ﷺ وكنت أشتاق جدًا للصلاة في مسجد الرسول ﷺ وفي الروضة الشريفة قال، ولكني دخلت المدينة في الساعة الثانية عشرة ليلًا، وأتيت إلى المسجد وإذ بالأبواب تغلق أردت أن أدخل لم أستطع، كلما أتيت بابًا أغلق فبكيت وأسرعت إلى باب آخر وأنا أبكي فأغلق أيضًا في وجهي فزاد بكائي وسارعت إلى آخر باب سيغلق بإذا به يغلق في وجهي حاولت الدخول فلم يؤذن لي وأغلق الباب فقعدت على الأرض وحولي بعض الإخوة، فجعلت أبكي وعلا صوتي بالبكاء لأني استشعرت الحرمان من دخول مسجد الرسول ﷺ، قال

---

(١) «لا تحزن» (٤٥٢-٤٥٣).

ثم مر بي أخ ضابط من حرس الحرم فوجدني أبكي بصوت مرتفع والإخوة يجلسون من حولي فسألهم: ماله؟ فقالوا: قد كان يريد الصلاة في الروضة وهو يحب النبي ﷺ فلما أغلقت الأبواب في وجهه ورأى أنه لا يستطيع الدخول كما ترى وهنا وضع هذا الأخ الضابط يده على كتفي وقال لي: تعال وأخذني وفتح لي أبواب المسجد وذهبت إلى الروضة الشريفة فصليت فيها وحدي، وليس في المسجد من خلق الله أحد فالحمد لله على هذا الفضل العظيم[1].

قلت: انظر إلى هذه النفسية الزكية والقلب الرقيق على أي شيء يبكي، وعلام يحزن، نحسبة كذلك والله حسبه ولا نزل على الله أحدًا وهكذا علماؤنا ترى فيهم الصدق وتستشعر منهم نبض الإخلاص، فاللهم احشرنا معهم تحت لواء نبيك المصطفى ﷺ.

١٣- ومن الإخلاص ما حرك الحجارة:

ومن جليل وجميل ما ورد في باب الفرج بعد الشدة ولطف الله بعباده في ذلك ما حدثنا به رسولنا ﷺ عن أولئك النفر الثلاثة والحديث في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم باب الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله تعالى بصالح أعمالكم.

---

(1) سمعتها منذ مدة لذلك سقتها بمعناها.

قال رجل منهم اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلًا ولا مالا، فنأي بي طلب الشجر يومًا فلم أرح عليهما حتى ناما، فجلبتُ لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما، وأن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفجرت شيئًا لا يستطيعون الخروج منه.

قال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سَنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها وفي رواية: فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليَّ وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنها ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إلي أجري، فقلت: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه

شيئًا، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون[١].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: استدل أصحابنا بهذا على أنه يستحب للإنسان أن يدعو الله في حال كربه، وفي دعاء الاستسقاء وغيره بصالح عمله ويتوسل إلى الله تعالى به، لأن هؤلاء فعلوه فاستجيب لهم، وذكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معرض الثناء عليهم وجميل فضائلهم، وفي هذا الحديث:

- بر الوالدين وخدمتهما وإيثارهما على من سواهما من الأولاد والزوجة وغيرهم.
- فضل العفاف والانكفاف عن المحرمات لاسيما بعد القدرة عليها والهم بفعلها.
- جواز الإجارة وفضل حسن العهد وأداء الأمانة والسماحة في المعاملة.
- إثبات كرامات الأولياء وهو مذهب أهل الحق[٢].
- قلتُ: وفيه:
- فضل الوفاء بالعهد وحفظ الأمانة.
- علو مكانة الإخلاص وأنه أصل في الأعمال وعظيم أثره على العبد في الدنيا والآخرة.
- كلما كان في الدعاء ذل وإلحاح ومسكنة و فتقار كانت الإجابة أقرب والفرج من الله أسرع فادع ربك يستجب لك.
- صحبة الصالحين فيها الخير للعبد في دينه ودنياه فصاحب المتقين تنسب إليهم، وجالس الصادقين يسرى صدقهم إلى قلبك.

(1) رواه البخاري (٢٢١٥)، مسلم (٢٧٤٣).
(2) «شرح النووي على مسلم» (٩/ ٦٨).

- التوسل المشروع الجائز هو التوسل بالأعمال الصالحة ومن التوسل الجائز أيضًا التوسل بأسماء الله وصفاته والتوسل بدعاء الرجل الصالح الحي أما غير ذلك من التوسل فلا يجوز بأي حال.
- البطولة الحقة والرجولة الصادقة هي كبح جماح النفس وردها عن غيها لاسيما عند ثورتها كما قال رسول الله ﷺ: من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين ما شاء[(١)]، وكذلك من رد شهوة وهو قادر على أن يمضيها إذا ردها لله كان له من هذا المعنى نصيب وما كان ربنا ليضيع أجر من عمل عملًا يريديه رضاه ومخالفة نفسه وهواه.

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وفيه فضل الإخلاص في العمل وفضل بر الوالدين وخدمتهما، وإيثارهما على الولد والأهل وتحمل المشقة لأجلهما وقد استشكل تركه أولاده الصغار يبكون من الجوع وقيل لعلهم كانوا يطلبون زيادة على سد الرمق وهذا أولى، وفيه أن ترك المعصية يمحو مقدمات طلبها وأن التوبة تجب ما قبلها، وفيه فضل أداء الأمانة وإثبات الكرامة للصالحين، وفيه ان المستودع عنده وديعة إذا اتجر في مال الوديعة كان الربح لصاحب الوديعة قاله أحمد[(٢)].

١٤- نجاة بعد أسبوع تحت الأرض:

هذه قصة واقعية أذيعت في الإذاعة السعودية منذ مائة سنة تقريبًا، وصاحب القصة يسمى ابن جدعان يقول: خرجت في فصل الربيع، وإذا بي أرى إبلي سائبًا يكاد

(١) رواه أبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي وحسنه (٢٠٢١)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجة» (٣٣٧٥).

(2) «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» (٦/ ٥٨٩-٥٩٠).

الربيع أن يفجر الحليب من ثديها، وكلما اقترب ابن الناقة منها ليشرب درت عليه، وانهال الحليب منها لكثرة الخير والبركة، فنظرت إلى ناقة من نياقي، ابنها خلفها، وتذكرت جارًا لي فقيرًا ولديه سبع بنات، فقلت: والله لأتصدقن بهذه الناقة وولدها الجاري، والله يقول ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢)، وكانت هذه الناقة أحب جمالي إلي، فيقول: فأخذتها وابنها وطرقت الباب على الجار، وقلت له: خذها هدية لك مني، فرأيت الفرح في وجهه لا يدري ماذا يقول من الفرح، فكان يشرب من لبنها ويحتطب على ظهرها، وينتظر وليدها يكبر ليبيعه، وجاءه منها خير عظيم، فلما انتهى الربيع وجاء الصيف وفيه الجفاف والقحط تشققت الأرض وبدأ البدو يرتحلون يبحثون عن الماء والكلأ، يقول: فشددنا الرحال وسافرنا من مكاننا لنبحث عن الماء في الدحول، وهي حفر في الأرض عميقة يكون فيها ماء يعرفها البدو.

يقول: فدخلت في هذا الدحل حتى أحضر الماء لنشرب وكان أولاده الثلاثة خارج الدحل ينتظرونه فتاه الأب تحت الأرض ولم يعرف طريقًا للخروج، وانتظر أبناؤه يومًا ويومين وثلاثة حتى يئسوا فقال بعضهم لبعض: لعل ثعبانًا لدغه تحت الأرض ومات، لعله تاه تحت الأرض وهلك وكانوا ينتظرون موته طمعًا في تقسيم المال والجمال، فذهبوا إلى البيت ولم يتعبوا أنفسهم كثيرًا في البحث والتنقيب عن أبيهم، جلسوا يقتسمون المال وأثناء القسمة تذكروا أن أباهم كان قد أعطى ناقة لجارهم الفقير، فذهبوا إليه وقالوا له: أعد الناقة خيرًا لك، وخذ هذا الجمل مكانها وإلا أخذناها منك عنوة ولم نعطك شيئا. فقال: اشتكيكم إلى أبيكم، قالوا: اشتك إليه أولا تشتك فإنه قد مات. فقال الرجل: مات كيف مات؟! وأين مات؟! ولم لم أعلم بذلك؟

قالوا: دخل دحلًا في الصحراء ولم يخرج، فقال هذا الرجل: ناشدتكم الله اذهبوا بي إلى مكان هذا الدحل، ثم خذوا الناقة وافعلوا ما شئتم ولا أريد جملكم.

فذهبوا به فلما رأى المكان الذي دخل فيه صاحبه الوفي ذهب وأحضر حبلًا، وأشعل شمعة ثم ربطه خارج الدحل، ونزل يزحف على قفاه حتى وصل إلى أماكن فيها يحبو، وأماكن فيها يزحف، وأماكن يتدحرج ويشم رائحة الرطوبة تقترب وإذا به يسمع أنين الرجل عند الماء، فأخذ يزحف تجاه الأنين في الظلام، ويتلمس الأرض فوقعت يده على الطين ثم وقعت يده على الرجل فوضع يده على أنفاسه فإذا هو حي يتنفس بعد أسبوع، فقام وجره وربط عينيه حتى لا تنبهر بضوء الشمس، ثم أخرجه معه خارج الدحل، وقدم له التمر وسقاه، وحمله على ظهره ثم جاء به إلى داره، ودبت الحياة في الرجل من جديد، وأولاده لا يعلمون، فقال: أخبرني بالله عليك، أسبوعًا كاملًا قضيته تحت الأرض كيف ذلك؟! قال: لما نزلت ضللت وتشعبت بي الطرق، فقلت آوي إلى الماء الذي وصلت إليه، وأخذت أشرب منه ولكن الجوع كان شديدًا، و الماء لا يكفي يقول: وبعد ثلاثة أيام وقد أخذ الجوع مني كل مأخذ وبينما أن مستلقٍ على قفاي قد أسلمت وفوضت أمري إلى الله وإذا بي أحس بدفء اللبن يتدفق على فمي.

يقول: فاعتدلت في جلستي وإذا بإناء في الظلام لا أراه قد اقترب من فمي، فأشرب حتى أرتوي ثم يذهب، فأخذ يأتيني ثلاث مرات في اليوم، ولكنه منذ يومين انقطع ما أدري ما سبب انقطاعه، يقول: فقلت له: ولو تعلم سبب انقطاعه لتعجبت،

لقد ظن أولادك أنك مت، وجاءوا إليَّ وسحبوا الناقة التي كان يسقيك الله منها، والمسلم في ظل صدقته ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ (الطلاق: ٤)[1].

١٥- صبر وتضحية حتى جاء فرج الله:

إن الدنيا ما عرفت ولن تعرف جبلًا عبد الله كما عبده صحابة رسول الله ﷺ ما عرفت الدنيا ولن يشهد التاريخ رجالًا جاهدوا وصابروا في سبيل الله وبذلوا كما بذل الصحابة الأطهار الصادقون، إن القلب ليمتلئ بالهيبة والجلال عند ذكر مواقفهم الفريدة والتي تنطق بصدق إيمانهم وقوة يقينهم وهم لنا نعم القدوة ونعم الأُسوة فهيا استمع لهذا الحديث لعلك تتأسى وتقتدي وتهتدي بسيرتهم الزاكية العطرة رضي الله عنهم وأرضاهم، عن جابر رضي الله عنه قال: بعثنا رسول ﷺ وأمَّر علينا أبا عبيدة نتلقى عيرًا لقريش وزودنا جرابًا من تمر لم يجد لنا غيره فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة قال فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال نمصها كما يمص الصبي ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله قال وانطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر قال أبو عبيدة: ميتة. ثم قال: لا بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله وقد اضطررتم فكلوا قال: فأقمنا عليه شهرا ونحن ثلاث مائة حتى سمنا قال: ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن ونقتطع منه الفدر كالثور أو كقدر الثور فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلًا فأقعدهم في وقب عينه وأخذ ضلعًا من أضلاعه فأقامها ثم رحَّل أعظم بعير معنا فمر من تحتها وتزودنا من لحمه

(1) قصص واقعية عن بعض الموتى لمجموعة من العلماء نقلًا عن «الجزاء من جنس العمل» (١/ ٥١٩/ ٥٢١).

وشائق فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا قال فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله[١].

وفي رواية قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: بعثنا رسول الله ﷺ ونحن ثلاثمائة راكب وأميرنا أبو عبيدة بن الجراح نرصد عيرًا لقريش فأقمنا بالساحل نصف شهر فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط فسمي جيش الخبط فألقى لنا البحر دابة يقال لها العنبر فأكلنا منها نصف شهر وأدهنا من ودكها حتى ثابت أجسامنا قال فأخذ أبو عبيدة ضلعًا من أضلاعه فنصبه ثم نظر إلى أطول رجل في الجيش وأطول جمل فحمله عليه فمر تحته قال وجلس في حجاج عينه نفر قال وأخرجنا من وقب عينه كذا وكذا قلة ودك قال وكان معنا جراب من تمر فكان أبو عبيدة يعطي كل رجل منا قبضة قبضة ثم أعطانا تمرة فلما فني وجدنا فقده.

إنه موقف عظيم يظهر من خلاله ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من صدق البذل في سبيل الله فلم يبالوا بأي معوقات أو مثبطات وفي الشدائد يظهر الرجال، وعند المحن يبين الإيمان الصادق، واليقين في وعد الله جل جلاله.

فوائد الحديث:

هذه فوائد ملخصة من كلام الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم، رحم الله علماء الأمة وجعل لهم في الأمة خلفًا كريمًا قال النووي رحمه الله:

---

(١) رواه مسلم برقم (١٩٣٥).

١- فيه أن الجيوش لابد لها من أمير يضبطها، وينقادون لأمره ونهيه، وأنه ينبغي أن يكون الأمير أفضلهم.

٢- وفي الحديث جواز صد أهل الحرب واغتيالهم والخروج إليهم لأخذ مالهم واغتنامه.

٣- فيه بيان ما كان عليه الصحابة من الزهد في الدنيا والتقلل منها، والصبر على الجوع وخشونة العيش، وإقدامهم على الغزو مع هذا الحال.

٤- وفيه جواز سؤال الإنسان من مال صاحبه ومتاعه إدلالًا عليه، وليس هو من السؤال المنهي عنه فهذا يكون للمؤانسة والملاطفة والإدلال.

٥- وفيه جواز الاجتهاد في الأحكام في زمن النبي ﷺ كما يجوز بعده.

٦- وفيه أنه يستحب للمفتي أن يتعاطى بعض المباحات التي يشك فيها المستفتي إذا لم يكن فيه مشقة عليه وكان فيه طمأنينة للمستفتي كما فعل النبي ﷺ من الأكل من لحم العنبر.

٧- وفيه إباحة ميتات البحر كلها، وهذا قول جمهور العلماء ودليلهم ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ (المائدة: ٩٦). قال ابن عباس والجمهور: صيده ما صدتموه، وطعامه ما قذفه وحديث قول النبي ﷺ: هو الطهور ماؤه الحل ميتته وهو حديث صحيح.

٨- وجمع العلماء بين رواية فأقمنا عليه شهرًا، ورواية فأكلنا منه نصف شهر، بأنهم أكلوا منه نصف شهر طريًا ثم قددوه بعد ذلك، فأكلوا من بقية الشهر قديدًا[1].

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٧/ ٩٧/ ١٠٠) والقديد اللحم المجفف على حرارة =

قلت: وقد أوردت هذا الحديث هنا نبين به أن فرج الله قريب، وأن حفظ الله لأوليائه ملازم لهم، فما هذا الحوت إلا رزق من الله ليفرج به عنهم كرب الجوع الذي حل بهم لذلك قال لهم رسول الله ﷺ «هو رزق أخرجه الله لكم»، وهكذا على قدر الولاية يكون الحفظ والرعاية، وعلى قدر اليقين والاستقامة تكون النصرة والكرامة.

١٦- رحلة الأهوال ولطف من ذي الجلال:

وعلى نفس الدرب سار السلف الصالحون يبحثون عن العلم النافع لينشروه وليغرسوا في نفوس الأمة أخلاق رسول الله ﷺ هذا الإمام أبو حاتم الرازي يذكر شيئا من المصاعب والشدائد التي لقيها أثناء رحلته في طلب العلم ثم تفريج الله لما حل بهم من كروب، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: لما خرجنا من المدينة من عند داود الجعفري سرنا إلى الجار وركبنا البحر وكنا ثلاثة أنفس أبو زهير المروزي شيخ وآخرنيا بوري، فركبنا البحر وكانت الريح في وجوهنا، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر وضاقت صدورنا وفني ما كان معنا من الزاد والماء، فمشينا يومًا وليلة لم يأكل أحد منا شيئًا ولا شربنا، واليوم الثاني كمثل وكذلك اليوم الثالث كل يوم نمشي إلى الليل، فإذا جاء المساء صلينا، وألقينا بأنفسنا حيث كنا، وقد ضعفت أبداننا من الجوع والعطش والتعب، فلما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشي على قدر طاقتنا، فسقط الشيخ مغشيًا عليه، فجئنا نحركه فإذا هو لا يعقل فتركناه ومشينا أنا وصاحبي النيسابوري، قدر فرسخ أو فرسخين،

الشمس.

فضعفت وسقطت مغشيًا علي، ومضى صاحبي وتركني، فلم يزل هو يمشي، إذ به يرى من بعيد قوما قد قربوا سفينتهم من البر.

ونزلوا على بئر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فلما رآهم لوَّح لهم بثوبه، فجاءوا إليه معهم الماء في إداوة فسقوه وأخذوا بيده فقال لهم: رفيقين لي قد ألقوا بأنفسهما مغشيًا عليهما، فما شعرت إلا برجل يصب الماء على وجهي ففتحت عيني، فقلت: اسقني، فصب من الماء في ركوة أو مشربة شيئا يسيرًا وأخذ بيدي فقلت: ورائي شيخ ملقى قال: قد ذهب إلى ذاك جماعة، فأخذ بيدي وأنا أمشي أجر رجلي، ويسقيني من الماء شيئًا بعد شيء حتى إذا بلغت إلى سفينتهم وأتوا برفيقي الثالث الشيخ وأحسنوا إلينا فبقينا أيامًا حتى رجعت إلينا أنفسنا، ثم كتبوا كتابًا إلى مدينة الراية إلى واليها وزودونا بالكعك والسويق والماء. فلم نزل نمشي حتى نفد ما كان معنا من الماء والسويق والكعك، فجعلنا نمشي جياعًا عطاشًا على شط البحر حتى وقعنا إلى سلحفاة قد رمى بها البحر مثل الترس، فعمدنا إلى حجر كبير فضربنا على ظهر السلحفاة، فانفلق ظهرها، فإذا فيها مثل صفرة البيض، فأخذنا من بعض الأصداف الملقى على شط البحر فجعلنا نغترف من ذلك الأصفر فنتحسَّاه حتى سكن عنا الجوع والعطش ثم مررنا وتحملنا حتى دخلنا مدينة الراية وأوصلنا الكتاب إلى واليها، فأنزلنا في داره وأحسن إلينا وكان يقدم إلينا كل يوم القرع ويقول لخادمه هات لهم اليقطين المبارك فيقدم لنا ذلك أيامًا فقال واحد منا بالفارسية ألا تدعو باللحم المشئوم وجعل يسمع الرجل صاحب الدار فقال الرجل:

أنا أفهم الفارسية فإن جدتي كانت هروية فأتانا بعد ذلك باللحم ثم خرجنا عنده بعد أن زودنا ما يبلغنا إلى مصر[١].

وهكذا تكون التضحية وهكذا يكون لطف الله بأوليائه فالحمد لله على سابغ فضله وعظيم لطفه، وقرب فرجه ورحمته، وكم في واقع الناس الكثير من الشواهد لهذا المعنى فتأمل هذا المعنى تجده ويمتلئ فؤادك بعظمة ربك جل جلاله.

١٧- ثمرة الدعاء:

يقول الدكتور خالد الجبير: ذهبت إلى بلاد المغرب العربي لإجراء بعض العمليات الجراحية من خلال جمعية خيرية هناك، وكان أمام هذه الجمعية ملعب للجولف يقول لي أحد الاخوة من هذا البلد وجدت أمام هذا الملعب امرأة تقف محجبة تقف كل يوم أمامه فتعجبت من وقوفها وازداد عجبي أني رأيتها تداوم على ذلك لمدة ستة أسابيع وفي يوم من الأيام ذهبت إليها وقلت لها: مالك تجلسين هنا؟! فقالت: إن زوجي مريض وينبغي أن تجرى له عملية في صمامات القلب وهذه العملية الجراحية تتكلف مائة وعشرين ألف درهم وليس معنا منها سوى خمسة آلاف درهم فقط، فأنا أقف هنا للشحاذة من الوزراء و الأغنياء، ولعل واحدًا منهم يتوسط في إجراء هذه العملية لزوجي.

قال: فقلت لها: هل ذهبت إلى الملك، قالت: أتسخر بي؟! إن الوزراء لا يكلمونني فكيف أذهب إلى الملك وكيف يؤذن لي بالكلام معه؟ قال: فقلت لها: الملك هو الله الذي بيده كل شيء ولا يرد أحدًا قصده. فقالت: أمن أجل أني مسكينة تسخر

---

(١) «علو الهمة» (١٦٢-٢٦٣)، «منطلقات طالب العلم» (١٢٨-١٣٠).

بي سامحك الله، قال: قلت: والله لا أسخر منك، ولكن لماذا لا تلجأين إلى الله أليس هو ملك الملوك وبيده مقاليد كل شيء، وهو على كل شيء قدير، أليس هو الذي يملك النفع والضر وحده؟! أليس هو الذي يملك كشف الضر وإجابة دعاء المضطر وحده؟! قال: فبكت: وقالت: أجل كيف تعلقت بهؤلاء ونسيت اللجوء إلى الله وهو ربهم وخالقهم؟! قال: فأخذت أوراق زوجها التي في يدها وانصرفت وقالت: جزاك الله خيرًا يا شيخ أن ذكرتني بالله، وذهبت. وبعد ثلاثة أسابيع جاءتني الأخبار بأن هناك قافلة طبية من بينها الدكتور خالد الجبير وأنه سوف يجري ثلاثين عملية جراحية في القلب، قال: فانتهزت الفرصة وسجلت اسم زوج المرأة في أول الحالات التي ستجرى لها العمليات الجراحية، وجعلت أبحث عن هذه المرأة فلم أجدها جعلت أطوف يمينًا وشمالا لأبحث عنها وأسأل عنها ولكن بلا فائدة فجعلت أقول ليتني عرفت عنوان بيتها، يقول: وبعد مرور خمسة أسابيع من البحث المتواصل عن هذه المرأة دخلت إلى سوق الخضار ذات مرة لشراء بعض المستلزمات المنزلية، قال: نظرت في السوق ونظرت، وفجأة رأيت المرأة بعينها سارعت إليها، وأوقفتها وسألتها عن حالها فقالت: الحمد لله فقلت لها، أبشري فإن ملك الملوك قد استجاب لدعائك، وفرج كربك وسيشفى زوجك بإذن الله قالت: ماذا تقول؟! كيف ذلك؟! فقلت لها: سيأتي مجموعة من الأطباء والجراحين بعضهم متخصص في جراحة القلوب وهذه العمليات مجانية وقد سجلت اسم زوجك في أول الحالات التي سيقومون بعلاجها. فرحت المرأة واستبشرت وجعلت تبحث عن مكان لتسجد فيه شكرًا لله على عظيم لطفه وسابغ فضله بتفريج كربها وكرب زوجها فالحمد لله ربّ العالمين الذي لا يضيع من قصد بابه ودعاه.

وهذا موقف آخر يحكيه الشيخ فيقول: جاءتني رسالة من ينبُع من أحد الإخوة المرضى وكان قد ابتلي ببلاء فعافاه الله يقول: لقد بقيت مصابًا بالعقم لمدة ثلاث عشرة سنة ذهبت إلى جميع الأطباء في الداخل والخارج، قالوا لي: ليس هناك أي أمل لأنه ليس عندك حيوانات منوية قال: فرجعت من أمريكا مثخنًا بالآلام مكتويًا بالجراح قد اسودت الدنيا في عيني وسئمت من الحياة، قال: ثم دعاني ابن عم لي أحسبه من الصالحين، دعاني إلى وليمة في بيته فلما رأى ما بي من الحزن سألني، وقال: مالي أراك حزينًا؟ فذكرت له ما أعانيه من آلام وأحزان بسبب عدم الإنجاب وعجز الأطباء عن إيجاد علاج وشفاء، فقال لي: ألا أدلك على طريقة تستطيع من خلالها أن تنجب؟ قلت: هاتها بسرعة، قال: عليك بشيئين، قلت: وما هما؟ قال: الدعاء والاستغفار أكثر من الدعاء في أوقات الإجابة في ثلث الليل الآخر.

وفي آخر ساعة من يوم الجمعة وبين الآذان والإقامة وعند نزول المطر وبعد الصلوات المكتوبات وأكثر من الاستغفار والإلحاح على الله عز وجل بالتضرع والدعاء، قال: فوجدت لكلامه أثرًا عظيمًا في قلبي، وبدأت في تنفيذ هذه النصيحة داومت على الدعاء وبعد خمسة أشهر حملت زوجتي بأول مولود والحمد لله، وأنا اليوم عندي ثلاثة من الأولاد والفضل كله لله وحده من الذي فرج كربه؟! من الذي أذهب همه وغمه وألمه؟! إنه ربنا الرحمن الرحيم العظيم القدير الكريم. إن الأطباء قالوا للرجل ليس عندك حيوانات منوية ونحن لا نكذب كلامهم ولا ننفيه بل نصدقهم ولكن نقول ربنا على ما يشاء قادر، يقول للشيء كن فيكون وبعد أن فقد الرجل الأمل

رزقه الله بثلاثة أولاد وليس بولد واحد[1]. أيها الإخوة من اعتصم بالله نجاه ومن توكل عليه كفاه ومن لجأ إليه ودعاه كشف ضره وبلواه، ومن تعلق بغير الله وكله الله إليه، وطرده عن بابه ولم يجد لضره شفاء، فإذا ابتليت فاعلم أنه ليس أحد أبدًا يستطيع كشف البلاء عنك إلا ربك ومولاك، فتذلل بين يديه وتضرع إليه يكشف عنك ما أصابك ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النمل: ٦٢).

إياك أن تترك باب ربك وتلجأ إلى مخلوقين عاجزين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا. أين إيمانك يا أخي إذا نزل بك بلاء؟! أين عقيدتك؟! أين يقينك وثقتك في الله؟! أين ثباتك وصبرك وتوكلك على الله، كن لله كما يريد يكن لك مثلما تريد وفوق ما تريد.

قال الإمام بن حبان البستي في نزهة الفضلاء: الواجب على العاقل أن يوقن أن الأشياء كلها قد فرغ منها، فمنها ما هو كائن لا محالة وما لا يكون فلا حيلة للخلق في تكوينه، فإن دفعه القدر إلى حال شدة فيجب عليه أن يأتزر بإزار له طرفان أحدهما الصبر والآخر الرضا، ليستوفي كمال الأجر لفعله ذلك، فكم من شدة قد صعبت وتعذر زوالها على العالم بأسره ثم فرج عنها بي أقل من لحظة قال وأنشدني الأبرشي:

هون على نفسك من سعيها ... فليس ما قدر مردود

وارض بحكم الله في خلقه ... كل قضاء الله محمود

قال وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

---

(1) «أسباب منسية» محاضرة مسجلة للدكتور خالد الجبير.

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر
عسى ما ترى أن لا يدوم وأن ترى ... له فرجًا مما ألح به العسر
وإذا اشتد عسر فارج يسرًا فإنه ... قضى الله أن العسر يتبعه اليسر (١)

١٨- رضيع ينطقه الله بالحق:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كان جريج رجلًا عابدًا، فاتخذ صومعة فكان فيها فأتته أمه وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يارب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته فانصرفت فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: أي رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته فلما كان من الغد أتته أمه وهو يصلي فقالت: يا جريج فقال: أي رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته، فقالت أمه: اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجود المومسات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجًا وعبادته، وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها فقالت: إن شئتم لأفتننه. فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعيا كان يأوي إلى صومعته، فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه. فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغي فولدت منك، قال: أين الصبي؟ فجاءوا به، فقال: دعوني حتى أصلي فصلى فلما انصرف أتى الصبي فطعنه في بطنه وقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي، فأقبلوا على جريج يقبلونه، ويتمسحون به، وقالوا نبني لك صومعتك من ذهب؟ قال: لا أعيدوها من طين كما كانت (٢).

---

(١) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (١٦١-١٦٢) بتحقيق أخينا أبي عبد الرحمن عادل شوشة.
(2) رواه البخاري (٤٠٢٠١)، مسلم حديث رقم (٢٥٥٠).

١٩- فك الله أسره رغم أنف البشر:

روى الحافظ الحميدي أن الوزير أبا عمر أحمد بن سعيد بن حزم والد الإمام بن حزم الفقيه المشهور، كان جالسًا مع الأمير للنصور أبي عامر محمد بن عامر، في بعض مجالسه للعامة فجاءت إليه رقعة فيها استعطاف من امرأة لابنها المسجون أن يفك المنصور أسره، فلما قرأ تلك الرقعة اشتد غضبه، وقال؛: لقد ذكرتني والله به وأخذ القلم وأراد أن يكتب حكمًا بصلب هذا السجين، فلما أراد أن يكتب يصلب كتب بدلًا منها يطلق، وأعطى الورقة إلى الوزير أحمد بن حزم، فأخذ الوزير الورقة وجعل يكتب ما اقتضاه التوقيع إلى صاحب الشرطة، فسأله المنصور: ماذا كتبت؟ قال: كتبت إلى صاحب الشرطة أن يطلق هذا المسجون، فغضب المنصور جدًا وقال من أمرك بهذا؟! قال: أنت وأعطاه الرقعة فقال له وهمت إنما هي ليصلبن فلما نظر المنصور إلى خطه في الرقعة رأى أنه كتب يطلق بدلًا من يصلب حدث هذا مرات فقال المنصور: نعم يطلق على رغمي فمن أراد الله إطلاقه لا أقدر أنا على منعه[1].

قلت: وليس هذا على الله بعزيز، ولقد حكى الشيخ محمد حسان حفظه الله تعالى قصة مشابهة قصها عليه مستشار وقعت القصة له هو، كان يقضي في قضية قتل ووصلت التحقيقات إلى إدانة شخص معين وفي نهاية المداولات كتب هذا المستشار الحكم بإعدام هذا المتهم وأعد الديباجة جيدًا، وفي الجلسة النهائية كان كل الناس منتظرًا ما هو الحكم يا ترى في هذه القضية، وخرج القضاة فعلًا على الناس وأصبح الجميع ينصتون للحكم فبدأ المستشار في قراءة الحكم ولما وصل إلى قوله حكمت

(١) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ٣٤١).

المحكمة على فلان بالإعدام لم تخرج الكلمة من فمه هكذا بل قرأ حكمت المحكمة ببراءة المتهم فلان، ضجت القاعة ودهش المستشار كيف نطق بذلك فقام من مجلسه ليتشاور مع مساعديه، وكانت النتيجة أن تعاد التحقيقات مرة أخرى وبعد طول بحث وصلت الشرطة إلى القاتل الحقيقي وثبتت الأدلة القوية جدًا عليه فجيء به وأطلق البرئ، فسبحان الملك العليم الحكيم.

٢٠- سهر وأرق ينجي من الغرق:

أرق سلطان صقلية ذات ليلة ومنع من النوم، فأرسل إلى قائد البحر يقول له: أرسل الآن مركبًا إلى أفريقية يأتون بأخبارها، فعمد القائد إلى مركب وأرسله، فلما أصبحوا إذا بالمركب في موضعه قد ذهب وعاد بمنتهى السرعة فقال الملك لقائد البحر: أليس قد فعلت ما أمرتك به، قال: بلى قد امتثلت أمرك وأرسلت مركبًا فرجع بعد ساعة، وسوف يأتي الآن قائده، فأمر الملك بإحضاره وقال له: ما منعك أن تذهب حيث أمرت؟ قال: ذهبت بالمركب فبينما أنا في جوف الليل والرجال يجدفون إذا بصوت يقول: يا الله يا غياث المستغيثين يكررها مرارًا فلما استقر صوته في أسماعنا ناديناه مرارًا مرارًا: لبيك لبيك، فجدفنا بالمركب نحو الصوت فلقينا هذا الرجل غريقا في آخر رمق من الحياة فأخرجناه وجعلناه معنا في المركب وسألناه عن حاله فقال: كنا مقلعين من أفريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام، وأشرفت على الموت ومازلت أصيح حتى أتاني الغوث من ناحيتكم؟ فسبحان من أسهر سلطانًا وأرقه في قصره لغريق في البحر

حتى استخرجه من تلك الظلمات الثلاث ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الوحدة فسبحان من لا إله إلا غيره ولا معبود سواه[١].

٢١- مال حلال محفوظ بحفظ الله:

قال أبو بكر الطوطوشي: أخبرني أبو القاسم بن حبيش بالموصل قال: لقد جرت في هذه الدار، وأشار إلى دار هناك قضية عجيبة، قلت وما هي؟ قال كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر من الموصل إلى الكوفة في تجارة الخز (الحرير)، فاتفق أنه جعل جميع ما معه من الخز في خرج، وحمله على حماره وسار مع قافلة، فلما نزلت القافلة أراد إنزال الخرج عن الحمار فثقل عليه، فأمر إنسانًا هناك فأعانه على ذلك، ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فسأله عن أمره فأخبره أنه من أهل الكوفة وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا زاد، فقال له التاجر كن رفيقي آنس بك، وتعينني على سفري ونفقتك ومؤنتك علي، فقال له الرجل: وأنا أختار صحبتك، وأرغب مرافقتك فسار معه في سفره، وخدمه أحسن خدمة إلى أن وصلا إلى تكريت فنزلت القافلة خارج المدينة، ودخل الناس إلى المدينة يقضون حوائجهم، فقال التاجر لذلك الرجل: أحفظ حوائجنا، حتى أدخل المدينة وأشتري ما نحتاج إليه، ثم دخل المدينة وقضى جميع حوائجه، ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه، ورحلت القافلة، ولم ير أحدًا فظن أنه لما رحلت القافلة رحل ذلك الخادم معهم، فلم يزل يسير ويجد في السير إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم وتعب شديد، فسألهم عن الخادم فقالوا له: ما رأيناه ولا جاء معنا، ولكنه ارتحل على أثرك فظننا أنك أمرته، فكر الرجل التاجر

---

(١) «المستطرف» للأبشيهي (٤٢٣).

راجعًا إلى تكريت وسأل عن الخادم فلم يجد له أثرًا ولم يسمع له بخبر فيئس منه، ورحل إلى الموصل مسلوب المال، فوصلها نهارًا وهو فقير جائع عريان مجهود، فاستحيا أن يدخلها نهارًا فيشمت به أعداؤه، ويحزن أصدقاؤه فانتظر إلى الليل ثم دخل الموصل وذهب إلى داره، فطرق الباب فقيل: من هذا؟ قال فلان يعني نفسه فأظهروا له سرورًا عظيمًا وحاجة إليه، وقالوا: الحمد لله الذي جاء بك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة والحاجة فإنك أخذت مالك معك وما تركت لنا نفقة كافية، وأطلت سفرك واحتجنا وقد وضعت زوجتك اليوم، والله ما وجدنا ما نشتري به شيئًا للنفساء فأتنا بدقيق ودهن نسرج به علينا فلا سراج عندنا.

فلما سمع ذلك ازداد غمًا على غمه وكره أن يخبرهم بحاله فيحزنهم ذلك، فأخذ وعاء للدهن ووعاء للدقيق وخرج إلى دكان قريب، من داره، وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحو ذلك، وكان البياع قد أطفأ سراجه وأغلق دكانه ونام فناداه فعرفه وأجابه وشكر الله على سلامته وقال له: افتح حانوتك وأعطنا ما نحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن، فنزل البياع إلى دكانه وأوقد المصباح، ووقف يزن له ما طلب فبينما هو كذلك إذ جانت من التاجر التفاتة إلى أرضية الدكان، فرأى شيئًا عجيبًا، رأى خرجه الذي هرب به الخادم، فلم يملك التاجر نفسه أن وثب إليه والتزمه وقال: يا عدو الله ائتني بمالي، فقال: ما هذا يا فلان، والله ما علمتك متعديًا، وأنا أبدًا ما جنيت عليك ولا على غيرك، فما هذا الكلام؟! قال: هذا الخرج خرجي هرب به خادم كان يخدمني وأخذ حماري وجميع مالي فقال البياع: والله مالي علم غير أن رجلًا ورد علي بعد العشاء واشترى مني عشاءه وأعطاني هذا الخرج وديعة عندي إلى الصباح، وترك حماره في دار جار لنا، وأما الرجل فهو في المسجد نائم، فقال: احمل معي الخرج وامض بنا

إليه، فرفع الخرج على عاتقه ومضى معه إلى المسجد فإذا الرجل نائم في المسجد فوكزه برجله فقام الرجل مرعوبًا فقال: مالك؟!، قال: أين مالي يا خائن؟ قال: ها هو في خرجك فوالله ما أخذت منه شيئًا، قال: فأين الحمار وآلته؟ قال: هو عند هذا الرجل الذي معك، فعفا عنه وخلى سبيله ومضى بخرجه إلى داره فوجد متاعه سالمًا فوسع على أهله وأخبرهم بقصته فازداد سرورهم وفرحهم فسبحان من لا يخيب من قصده ولا ينس من ذكره[1].

ولله در القائل

لئن صدع البين المشتت شملنا ... فللبين حكم في الجموع صدوع

وللنجم من بعد الرجوع استقامة ... وللشمس من بعد الغروب طلوع

وإن نعمة زالت عن الحر وانقضت ... فإن لها بعد الزوال رجوع

فكن واثقًا بالله واصبر لحكمه ... فإن زوال الشر عنك سريع

أيها الإخوة... كل ليل سيعقبه نهار وكل ظلمة سيعقبها ضياء، وكل شدة يكون من بعدها فرج قريب، وكل هم سوف ينجلي، وكل كرب سوف يزول، هذه سنة سنها الله في خليقته، وقضية مسلمة يعرفها العاقلون كما يعرفون أن بعد الليل نهار، والله جل وعلا يعلمنا من خلال الشدائد دروسًا عظيمة وحكمًا باهرة، نتعلم في الشدائد الذل لله والتضرع إليه، والبكاء بين يديه، يعلم الإنسان في الشدائد حقيقته وأنه مخلوق عاجز ضعيف لا يملك من أمره شيئًا فيتوجه بكل قلبه وجوارحه إلى الملك العلي الرحيم الودود الغني، فيجد في الذل إليه عزًا، ويجد في الشكوى إليه راحة وأنسًا، ويستشعر في

(١) «المستطرف» للأبشيهي (٤٢٥).

قلبه قرب الله منه، إنني أذكر الآن كثيرًا من أهل البلاء أعطاهم الله تعالى من معاني الإيمان وحقائق اليقين ما لو أنفقوا الكنوز ما حصلوه، كم من أهل البلاء من ترى عندهم من الرضا والصبر وانشراح الصدر ما لا تجده عند غيرهم يقول أحد الأطباء الدعاة إلى الله بالسعودية، بينما أدور ذات يوم في المستشفى أتفقد أحوال المرضى إذ بي ألمح زميلًا لي على سرير أبيض فسألت: أهذا اسمه فلان قالوا: نعم قلت: ماذا به قالوا أصيب بمرض تسرب إلى العمود الفقري فكل منه لذلك فهو مصاب بشلل قلت: وماذا قال له الأطباء؟ قالوا: إنه لا أمل في الشفاء أبدًا، ودرجة إمكانية الشفاء تساوي صفر فقلت لماذا: فقيل لي لأن الفيروس أكل العمود الفقري، ومن المعلوم عند الأطباء أن العمود إذا أكل منه شيء فإنه لا يحيا إلا إذا قال الله له كن فيكون سبحانه وتعالى.

قيل لي: إنه سيجرى له بعض العلاجات الطبيعية ثم يخرج من المستشفى، يقول الشيخ: فذهبت إلى زميلي ذلك ودخلت عليه وكلي حزن، فلست أدري ما أقول له: ولا كيف أواجهه، دخلت عليه فإذا بي أتلقى درسًا إيمانيًا عاليًا، دخلت عليه فوجدته كعادته ذا ابتسامة طيبة، ووجه طليق، فقلت له الحمد لله فقال لي يا أبا محمد الحمد لله علم ربي تقصيري في حفظ كتابه فأجلسني لأحفظ القرآن والحمد لله يقول الشيخ ففاضت دموعي، وارتجفت جوارحي، وخرجت من عنده، وأنا في حالة من الاضطراب العجيب، بين حزن على حال صاحبي وفرح لأني رأيت من أمة محمد في زمننا من يحسن الظن بالله وقلت: ها هو سيفصل من عمله، وليس له راتب شهري، وليس عنده ما يدر عليه مالًا، ومع ذلك يحمد الله ويثني عليه، ويقول: علم ربي تقصيري في حفظ كتابه فأجلسني لأحفظ القرآن. يقول الشيخ: ذهبت إليه مرة أخرى لأسلم عليه فوجدت أخاه عنده وهو يقول له: حرك قدميك لأرى هل يمكن لك أن

تتحرك أم لا، فقال له: يا أخي والله إني أستحي من ربي أن أستعجل الشفاء، فإن كان لي خير في الشفاء فسوف يشفيني، لقد بقيت لي عافية مدة طويلة من عمري فكيف أستعجل الشفاء، فقلت: الحمد لله الذي جعل من أمة محمد من يقتدي بأنبياء الله ورسله في الصبر على البلاء ومن يستن بسنة نبي الله أيوب عليه السلام، يقول الشيخ: ثم سافرت إلى خارج البلاد لمتابعة دراسة لي وبعد الرجوع ذهبت لأزوره في المستشفي قيل لي: أنه في قسم التأهيل: قلت التأهيل؟!، فقيل لي: نعم، فتعجبت جدًا لأن معنى ذلك أن هناك أمل في أن يمشي على قدميه مرة أخرى، ذهبت إليه بسرعة وإذا بي أراه يجلس على كرسي متحرك يسبح ويهلل كعادته فجئت أسلم عليه وقلت له: كيف حالك؟ فقال: الحمد لله فإن رجلي بدأت تتحرك قليلًا، ولكن أبشرك فلقد حفظت القرآن كله، قال: فجلست معه قليلًا ثم سافرت إلى الخارج مرة أخرى، ومكثت ستة أشهر في هذا السفر ولما رجعت في أول صلاة صليتها في مسجد المستشفى، بينما أنا خارج من باب المسجد وإذ بأحد الناس في الشارع يناديني نظرت إليه فإذا هو صاحبي يمشي على قدميه وقد شفاه الله عز وجل، فقلت: سبحان الله من الذي أحياه؟! من الذي أمشاه على قدميه من الذي رد عليه العافية ومن الذي أحيا خلايا العمود الفقري؟! ذلكم هو الله الذي يحي العظام وهي رميم[1].

قلت ولله در القائل

فلابد لليل أن ينجلي ولابد للقيد أن ينكسر
ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

(١) «أسباب منسية» للدكتور/ خالد الجبير.

وقول آخر:

وكم لله من لطف خفي ... يدق خفاه عن فهم الذكي
إليه توجهي في كل دهر ... عليه توكلي في كل أمر
فلكم من شدةٍ ذهبت وفقر ... وكم يسر أتى من بعد عسر
نشكر للذي فلق الصباحا ... فكم من أزمة عنا أزاحا
وكم هم تعاظم ثم راحًا ... وكم أمر تساء به صباحا

قال الدكتور القرني حفظه الله: يا إنسان بعد الجوع شبع، وبعد الظمأ ري، وبعد السهر نوم، وبعد المرض عافية، سوف يصل الغائب ويهتدي الضال ويفك العاني، وينقشع الظلام، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده، بشر الليل بصبح صادق يطارده على رؤوس الجبال، ومسارب الأودية، وبشر المهموم بفرج مفاجئ يصل في سرعة الضوء، ولمح البصر، بشر المنكوب بلطف خفي وكف حانية وادعة، إذا رأيت الصحراء تمتد وتمتد فاعلم أن وراءها رياضًا خضراء وارفة الظلال، إذا رأيت الحبل يشتد ويشتد، فاعلم أنه سوف ينقطع، مع الدمعة بسمة، ومع الخوف أمن، ومع الفزع سكينة.

قلت: أخي الحبيب...كن عبدا لله حقًا في السراء والضراء، في النعمة والرخاء في الصحة والمرض، في العافية وفي الكرب لله عليك عبودية في كل موطن من مواطن الحياة وفي كل موقف يمر بك وتعامل مع ربك دائمًا على أنه كريم رحيم، تعامل مع ربك دائمًا على أنه أرحم بك أنت من نفسك بنفسك، وقد يكون في الكرب الذي تبتلى به نعمًا لا تحصى، وفضائل وحسنات لا تعد، ولو لم يكن في الكرب إلا أن تخلص الدعاء

لربك لكفى، نعم إن الله جل جلاله يعلمنا من خلال الشدائد ألا نلجأ إلا إليه، وألا نستغيث إلا به، وألا ندعو إلا إياه، وفي الشدائد غسل للخطايا، ومحو للذنوب، ورقة للقلوب وتذكير للعبد بربه، وإظهار لحقيقة الدنيا الفانية الزائلة الذاهبة فيا من ألمَّ به حادث ويريد النجاة، ويا من أنَّ من مرضه وشكواه، ويا من ظلمت وتبتغى النصرة والمواساة، عليك بهذا النداء ما امتدت بك الحياة...يا الله...يا الله... يارب... يارب نعم، ارفع أُكفَّ الضراعة وتقدم بين يدي طلبك بطاعة، فاللهم فرج الكرب عن المكروبين وأزل الهم عن المهمومين وأنزل على قلوبنا هداية تهدينا بها أجمعين.

obeikandl.com